نقد على محمود طه

للأستاذ دريني خشبة

وأخيراً نصل معاً ، أو أصل وحدى ، إلى الناحية المظلمة ن على محمود طه ، شاعرنا الرقيق النابه ، بعد أن جد بنا المسير

تلك الناحية المظلمة التي لا يجيد كثير من القراء الظالمين أن يبصروا إلا فيها ... وهي ناحية تسهل الكتابة فيها أكثر مما تسهل الكتابة وتسلسل في الناحية المقابلة ... الناحية المشرقة الزاهية ... التي تعنى بالحسنات ، أضعاف ما تعنى بالسيئات ...

ومن السهل جداً يا صديقي القارئ ، سواء أكنت ناقداً أم راضياً ، أن يتناول الإنسان أحسن الأعمال الأدبية فيردها سوءات كلها ... ومن السهل جداً أن يغمض الإنسان عينيه عن أمجاد الكاتب أو الشاعر ، فلا يرى إلا ظلمات يتدجى بعضها فوق بعض ... وقد عاهدت نفسي ألا أقع في هذا الظلم الأدبي الصارخ وأنا أنقد أحداً من أعز الناس على أدبائنا المصريين ... بل أدبائنا العرب أجمعين ، فرب ثناء يصادف محله ، فيكون تزكية للعبقرية الكامنة التي تستحق الثناء وتستأهله ... ويكون سبباً في أن تفعل هذه العبقرية الأفاعيل ... ورب قدح ظالم لا خير فيه ، يسميه صاحبه نقداً وما هو بنقد ، لكنه سم يسري في بنيان نهضتنا فيثبط الهمم ، ويفت في العزائم ، ويحطم الآمال ... وكم كنت أتمنى ألا أكتب هذا المقال في نقد على محمود طه ... لأني مهما اجتهدت في تلقف ما أنقده به ، وآخذه عليه ، فلن أفوز إلا بهنات هينات لا يمكن أن تنال مطلقاً من شاعريته التي نضجت ، أو من فنه الذي اكتمل

وربما تركت أكثر دواوينه ، فلا أعرض لها إلا من بعد ، وفي مناسبات قليلة ، حينما أضطر إلى ضرب الأمثال للملاحظات التي أسوقها فيما يلي ... ربما تركت أكثر دواوينه إذن ... لأفرغ لمنظومته « أشباح وأرواح » ... تلك المنظومة التي كان من العسير على فهمي الضئيل أن يلم بها ، بالرغم مما كنت أهيم به من قراءة الأساطير ، ومصاحبة هوميروس وأبولونيوس وثرجيل وأبي العلاء وابن شهيد وداتي وملتون ، وطول مداعبة خيالي لأخيل وبتروكلوس وأوديسيوس وأجاكس وهكتور وباريس ، وإينياس وابن القارح ، وزهير بن نمير ، وبياتريس ، وعيسى بن مريم ، وهذه النخبة الساحرة من أبطال الأنياذة والأوديسة والأنياذة ، ورسالة الغفران ، والروابع والتوابع ، والكوميديا الإلهية والفردوس المفقود ...

فإني قرأت هذه الروائع كلها وفهمتها على وجهها ثم أجدني غبياً أشد الغباء حين أتناول هذه الأرواح والأشباح فلا أستطيع أن أبلعها ... كلا أن أهضمها ، ولا أستطيع أن أطير مع الشاعر اللبق المحبوب في تلك الجواء التي لم أتبين ألا زوردية هي ، أم هي ظلمات في ظلمات في ظلمات !

يخبرنا الشاعر في المقدمة أنه تجرد من طينه ، (أو أن روحه انسدقت من طينها فيما يشبه أحلام اليقظة ... وكأنه بها وراء سحابة في عالمها الذي سبق أن عاشت فيه عند بعثها الأول ، وأنه وجد نفسه في طريق أفلاطون ومثله العليا ، فتنفس في هذا الجو طليقاً حراً لا تقيد بيئة ولا عقيدة ، ولا يحد من حريته حذر أو اتهام ، وأنه أرسل بصره في هذا الطريق الصاعد البعيد فلم يصل إلى مداه ، وبدأت البصيرة عملها من حيث انتهى البصر ، فإذا أبوابه سحرية موصدة ، وراءها خفايا وأسرار ،

والبيت :

لم أر أن أكون من رواته إذ هو معدود في هناته

غير متزن كما قلتم ؛ وأحسب صوابه : إذ هو مما عد في هناته

وأما قول القائل : « إن لم أجد التأبين ، فأجد البكاء والحنين » فنحن نوافقك على أنه ليس من مواضع فاء الجزاء ، ولكن لم نستبح تغيير الكلام وكان ينبغي التنبيه عليه كما قلتم

وبقية الأغلاط الواضحة مثل الكسرتين تحت لام الجهل مع ألف التعريف ، ومثل الرخصاء مكان الرحضاء في بيت المتنبي ، وابن حَجر مكان ابن حُجر ، فهي من الهفوات التي لا ندري كيف وقعت ، ولكنا ندري أنها لم تقع إلا سهواً من الطابع أو المشرف عليه الخ

وأكرر للأستاذ اعتذاري وثنائي وشكري .

عبد الوهاب عزام

وقضايا وأقدار ، وإذا به فى ختام قصيدته لا يزال فى ذات الطريق لم يصل إلى غاية ، ولم يوف على نهاية ...) ويخبرنا أنه سمع حواراً فى عالم الأسرار والأقدار يجرى بين حوريات من صواحب الفن وربانه ، هن : سافو وبليتيس وتايبس ... ثم هرمز ... أو هرميس كما سماه الشاعر ... يحكم بينهن[1] ...

ولو أن هذا هو الذى يقرأه الإنسان فى تلك المنظومة الغريبة لهان الأمر ولما انهمت نفسى بالبلادة وفهمى بالغباء ... لكننى أقرأ من هذه المنظومة هـذه المقطوعة العجيبة الشائقة « حواء »[2] فأجد قلباً يجيد وصف المرأة . هذه الجنة التى زان بها الله وجه الحياة ... وأجد هذا القلب يعترف بالله وبالأقدار ، وذلك حيث يقول :

قضى الله أن تُغوىَ الخالدين ... وتُغرىَ بالمجـــد عشاقهـا

وحيث يقول فى ختام المنظومة :

من الخير والشر إلهامهـا . وما هو إلا القديم السماعْ
فدع للسماء تصاريفهـــا ... فقد أذن البعث بعد انقطاعْ

وهى أبيات يرددها صوت من السماء ... فأين هو هذا الانطلاق من البيئة والعقيدة ؟ وأين هو طريق أفلاطون ومثله العليا ؟! أقول لك الحق يا صـديقى على ! إنى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك . . . ورأيى فيك هو الذى أعلنته فى كلماتى السابقة حينما دافعت عنك . ودفعت عنك ما يظنه الناس فيك ، وما تظنه أنت بنفسك من البعثرة بين الزهر والخمر ، وبين أطياف سافو وأفروديت وتايبس وبليتيس ...

على أننى لست أدرى لماذا تستأثر بخيالك أشباح اليونان الغابرة ، ولماذا نسيت فى هذه الأشباح والأرواح مصر الخالدة الحاضرة ؟ فهـل رأيت كيف لم تستطع الانسلاخ من الشرق العزيز الحبيب حين هتف بك هذا الصوت من السماء فى آخر المنظومة ، فردك إلى وادى الوحدانية المؤمنة ، وأقصاك عن الأولمب الوثنى ذى الآلهة المتعددة ، وذلك حينما قلت :

أم الشـــك آذننى بالصرا ... ع أم حل بى غضب المنتقمْ

فجلجل فى أذنيك — أو أوحى إليك ... بأن تدع للسماء تصاريفها ...

ولـكن ... لا غبار عليك ، فلست أول مفتون بجمال الميثولوجيا اليونانية التى ظلت أحقاباً وأحقاباً مصـدراً لإلهام الشعراء . . . ولعلك جاعل لمصر نصيباً فى غير هـذه المنظومة إن شاء الله .

هذا من حيث الموضوع ... أما من حيث الشكل فالنقد أيسر ما يجرى به قلم الناقد . . . ولعل أول ما يلفت النظر فى سياق أشباح وأرواح هو طريقة الانتقال هذه من مقطوعة إلى مقطوعة ، ومن حوار إلى حوار . . . ولو كانت المنظومة تمثيلية لما كان ثمة موضع لمؤاخذة . ولـكن المنظومة قصـة خيالية ، فلماذا لم تُنظم هذه الكلمات الانتقالية التى كُتبت بالمداد الأحمر ، مع أنها تصور مناظر خلابة كهذه الكلمات التى مهد بها لمقطوعة « الحية الخالدة » ، والكلمات الواردة فى صفحة ٦٤ التى يقول فيها : (هرمز ينظر إلى غمائم بيض) قريبة وكأنه يترقب شيئاً والتى فى صفحة ٦٥ والتى فى صفحة ٧٨ التى تصور انشقاق القامة عن الشاعر فى موقف اضطراب ... ...

لقد كان هوميروس بارعاً جداً فى مثل هذه الانتقالات ... لقد كان ينطق أخيل مثلاً بكلام ، فإذا انتهى أخيل وأراد خصمه هكتور أن يتكلم ، تجلت عبقرية هوميروس فى وصف أثر كلمات أخيل فى نفس خصمه ، وفى نفوس الطرواديين ... فإذا تكلم هكتور وفرغ من كلامه ، مهد هوميروس للمنظر الذى يلى بشعر يعتبر من غرر الإلياذة الخالدة . وكذلك كان يصنع فى الأوديسة . ومنظر انشقاق القامة عن الشاعر هو منظر تصويرى مبتكر ، فكيف يكون خيال شاعرنا الرقيق الموهوب أكثر عبقرية من تعبيره الكلامى ؟ ولماذا لم يلبس هذا المنظر حلته البهية السنية من شعر على محمود طه البهى السنى ؟! لماذا ؟ ... لماذا هذه السرعة فى الإخراج ؟

ولقد تعنيت طويلاً بحسن اختيار الشاعر لبحوره وقوافيه ، ولـكنى لاحظت مع ذلك أنه كان ينام أحياناً عن اختيار هـذه

(١) من مقدمة أرواح وأشباح مع تحويل الضمير إلى الغائب
(٢) ص ٦٦ وما بعدها

البحور ، ويتام عنها ملء أجفانه . وكان حين يصنع ذلك يرسل كلاماً لا هو بالشعر فتحمد موسيقاه ، ولا هو بالنثر فتحمل مجيراه : ومن ذلك هذا الكلام الذى تقوله حوريتنا ربة الريح الغربية فى أغنية الرياح الأربع ص ٧٣ :

أنا ريح الغرب بنت الآباد
أنا همس القلب أنا رجع الشادى
أنا رمز الحب فى هذا الوادى

ثم هذا الكلام الذى يقوله ماتوكا العبد الأسود ص ٩٥ :

مائدة حافلة كثيرة الأغراء
جاءت بها قافلة تدلف من سيناء

فأين موسيقا على محمود طه وأين غناؤه وألوانه فى هذا الكلام ؟ وقل مثل هذا فى ذلك النشيد الذى يهرف به ياتوزيس ص ٣٣

وأحسبنى قد انزلقت برغمى إلى أعمق أعماق الناحية المظلمة من على محمود طه ، وعلى الرغم منى ... ولذلك فأنا أوثر أن أعبر هذه الظلمات القليلة فى سرعة خاطفة ، لأن أنوار الشاطىء الآخر المتلألئة تجذبنى فى قوة وعنف ...

فما اصطدمت به فى تلك الظلمات انتقال الشاعر فى كلام المتحدث الواحد من بحر إلى بحر ، كما يقول ماتوكا (ص ٩٦) :

هو عند الشاطىء يستقصى نبأ ويسائل ركبانا
إن شاء سيدى أمر أرفع هاتيك الستر

ولست أدرى لماذا لم ينظم البيت الثانى من المتدارك كالذى قبله ؟ فإن اعتذر بأن البيت الثانى كان فاتحة كلام جديد ، فما أظنه حَرِياً بياتوزيس الشاعر أن يجرى وراء ماتوكا الخادم فى بحر يستفتحه له !

ومن ذلك قول أزمردا ص ٤٠

أقيم فى قصر ؟ وفيم القصورْ ؟
وطوع سلطانى هذى البحورْ ؟

وعضى فى النظم على هذا الميزان ، ومن تلك القافية ، ثم تراه يغير الميزان ويبقى على القافية فيقول :

يثير أهواء الحسان الحورْ
حتى تُرى فى ظله المنشورْ
يحملها إلى الغد القدورْ ؟

ولست أدرى ما ذنب هذه المصاريع الثلاثة الأخيرة لتشذ عن موسيقا المصاريع العشرة التى سبقتها ؟

ومما صدمنى فى هذه الظلمات القليلة بعض الانحرافات « النحوية » التى لا أسيغها ، ولا أحسب أن لغتنا العربية تسيغها ...

فمن ذلك إفراد فعلاء التى تصف جمعاً إذا كانت فعلاء هذه صفة لونية ... فالغرف الحمراء ص ٣٦ خطأ فى رأيى ، والصحيح أن يقال « الغرُف الحُمْر » ولا داعى مطلقاً إلى تحدى الناس جميعاً بأن يوردوا مثالاً واحداً أفردت فيه فعلاء اللونية إذا وصفت جمعاً من قرآن أو كلام جاهلى أو إسلامى ... ولن يقبل عذر معتذر بأن أعلام كتابنا يستعملون ذلك اليوم

ومن الانحراف النحوى أيضا قول الشاعر « لا زال » ص ٤٨ والأصح « ما زال » وتستعمل لا فى المضارع فيقال « لا يزال »

ولست أدرى معنى « إضطرح » ص ٤٩ وهو يريد اطّرح بالطاء المشددة

ويقع الشاعر فى هذه الغلطة الذائعة فيقول : الأسى الدّاوى مكان المدوّى « الملاح التائه ص ٨٠ »

على أن هذا كله ليس شيئا فى مفاتن شاعرنا الرقيق المبقرى الموهوب ، الذى أصبح لسانا من ألسنة مصر الحديثة تدخره لمجدها وتنطوى عليه حنايا . دريني خشبة

حكم فى الجنحة ٧٧٢ عسكرية مصر الجديدة سنة ٩٤٢ بحبس أحمد سلطان كريم ثلاثة أشهر والنشر والتعليق والفلق والمصادرة لعرضه للبيع خبزاً بأزيد من التسعيرة